أيام فى الكويت !

وحسب كلام أمى - أنهما وصلا إلى مطار الكويت ليلا وعندما نزلا من سلم الطائرة لاحظا أن المكان فى وسط الصحراء الواسعة والجو رطب وبه رائحة البترول ثم سمعا اللهجة الكويتية وكانت لهجة عربية من الصعب فهمها فى البداية . وكان فى انتظارهما عدد من الأساتذة الجامعيين المصريين العاملين بالكويت ممن كانوا يعرفونهما من زمن طويل .

ثم انتقلا بسيارة إلى السكن الذى خصصته لهما الجامعة بحى السالمية . وشد انتباههما الشوارع العريضة والدوارات الكثيرة التى عرفت بها الكويت ثم السكون الكامل . كان عالما غريبا ليس بينه وبين أسبانيا أى صفة مشتركة .

وذكرت أمى أنها كثيرا ما كانت ، تبكى فى بداية إقامتها فى الكويت لأنها كانت تشعر أنها منعزلة عن العالم كله ، ولكن بالتدريج تعرفت على باقى سكان العمارة التى كانا يسكنونها - وكانوا جميعا أساتذة فى جامعة الكويت ، كان هناك من بينهم على سبيل المثال أستاذ بكلية التجارة أصبح وزيرًا فى مصر فيما بعد

وأذكر أنه كان يشوى اللحم على السلم خارج شقته يوم الجمعة . وكان يسكن تحتنا أستاذ بكلية الحقوق جمعتنى مع ابنته صداقة حقيقية ، وكانت والدتها عند خروجهم تأخذ معها كوبا من الشاى تشربه فى السيارة : الحياة بالكويت كانت هادئة والشوارع عريضة ومريحة للقيادة تسمح بمثل هذه العادات . وكان فى الطابق العلوى أستاذة شاعرة عراقية مع أسرتها سمعت أنها أتت من العراق للإقامة فى مصر مؤخرًا . وكان هناك أستاذ آخر استغربنا جدًا عندما علمنا أن زوجته لا تصحو من النوم إلا ظهرا وعلمنا ذلك لأن الصحف اليومية كانت تمكث ملقاة أمام باب شقتهم حتى ميعاد استيقاظها . المهم تعرفنا على جميع هؤلاء الناس وعلى آخرين وكان الوقت بالكويت يسمح بتكوين الصداقات ، ثم أنه كان من السهل زيارة هؤلاء الأصدقاء لأن المرور فى الكويت منظم حتى فى أوقات الزحام والشوارع عريضة ونظيفة والمسافات غير بعيدة .

تعرفت أمى على أسر مصرية أخرى كانت تعرف بعضها من قبل ثم تعرفت على أسر من بلاد عربية أخرى ومنهم أناس كويتيون ، وتكونت صداقات مازالت حيّة حتى الآن . وبعد أن كانت الكويت تثير الخوف فيها فى البداية أصبحت تجد فيها بالتدريج مميزات لا توجد فى بلدان أخرى ، فناسها أولا طيبون وعلى خلق جميل وكرماء فى معاملتهم جدًا ثم إن طبيعة البلد الهادئة تسمح بمزاولة حياة اجتماعية وتكوين صداقات حقيقية ،

كما أن هدوء البلد نفسه يساعد على راحة البال وتنظيم الحياة والقيام بعمل ذى قيمة ، لأن الوقت متاح لأى عمل يحب المرء أن يقوم به .

وأول عمل بدأت أمى الاشتغال به فى الكويت كان تهيئة الشقة - وكانت شقة مفروشة مجهزة من قبل إدارة الجامعة - حتى يصبح لها طابعنا . وقامت بذلك بدون وعى فغيّرت ستائر غرفة المعيشة وملأت الغرفة بالنباتات وأذكر أن هذه النباتات كبرت وازدهرت وتسلقت على الجدران حتى السقف وغطت كل سقف الغرفة وكان منظرها جميلا ولافتا للنظر بقوة . ثم كانت فى غرفة الطعام المجاورة لغرفة المعيشة منضدة طويلة قسمتها أمى إلى نصفين : نصف تحوّل مكتبا لأبى يعمل عليه والنصف الآخر كان لتناول الوجبات اليومية . وقامت أمى بهذا التقسيم حتى يكون أبى بجوارها وهو يعمل فلم تكن تريد أن تكون له غرفة مكتب مستقلة حتى لا يفصل بينهما حائط وباب مغلق .

ثم حذفت الأثاث الذى كان فى مدخل الشقة وفى قاعتها صففت على جدرانها مكتبات نظمت على رفوفها كتب أبى التى أتى بها معه من أسبانيا . وملأت هذه الكتب الصالة والمدخل وجزءًا من غرفة السفرة وغرفة صغيرة أخرى كانت مخصصة للنوم ، وبين باقى مكونات الشقة كانت غرفتا نوم ثم حمامان ومطبخ . المهم أن أصبح للبيت طابع كان دائما موجودا فى بيت

أبى أينما عاش . وكانت الألوان السائدة فيه دائما الأحمر والأخضر وهما ألوان أمى المفضلة .

واستأنفا حياتهما فى الكويت ولحقت أنا بهما بعد قليل إذ التحقت بقسم اللغة الإنجليزية بالجامعة هناك . وكان اختيارى هذا يدهش الكثيرين إذ كان من المتوقع أن أختار اختصاصا متصلا بتخصصات أبى واهتماماته . ولم أستطع أن أرد على هذه الأسئلة فى ذلك الوقت ، ولكننى أدركت بعد ذلك أننى كنت أريد – بدون وعى – أن يكون لى عالمى الخاص وشخصيتى المستقلة وأن يكون التخصص الذى أريده من اختيارى أنا . والطريف أننى بعد أن بدأت الدراسة بالأدب الانجليزى وبدأت أتناقش مع أبى فى بعض الموضوعات التى كنت أدرسها أدركت أنه كان يعلم بالتفصيل عن تاريخ إنجلترا وآدابها وفكرها أكثر مما كنت سأدرسه فى كل سنوات دراستى هناك .

وكانت إقامتنا فى الكويت فترة سمحت لنا بالتعرف على عرب غير المصريين وأذكر أن من أعمق الصداقات التى كونها أبى هناك كانت صداقة جمعته بأحد الفلسطينيين المتخصصين فى التاريخ الإسلامى أيضًا ، وأتاح لنا ذلك فرصة لكى نتعرف – أنا وأمى – على القضية الفلسطينية من الباطن أى من نفس أهلها . فكان هذا الدارس الفلسطينى رحمه الله – إذ اتصلت بنا فى مصر زوجته مؤخرا لكى تبلغنا بوفاته فى الأردن حيث كان يعمل أستاذا فى

إحدى جامعاتها وكان يحكى لنا عن هموم الفلسطينيين خارج وطنهم ، وكيف يحلمون بالعودة إلى وطنهم ورأينا كيف يهتمون بأولادهم وتربيتهم حتى يكون الفلسطينى دائما محترما ويقصون على أبنائهم الصغار تاريخهم وتاريخ عائلاتهم العريقة حتى لا ينسوها أبدًا وحتى يكونوا على أتم معرفة بأصولهم وجذورهم . وأذكر أنه كان كثير الحماسة للرئيس جمال عبد الناصر وكان يعتبره بطل العروبة الأول ، ولذلك كان يعلق صورة كبيرة له فى غرفة المعيشة لديه .

وتعرفت أمى بهذه الطريقة على البلدان العربية المختلفة وإيجابياتها وسلبياتها وقضاياها والسمات المميزة لكل منها . ويرجع ذلك إلى حب استطلاع غريزى فيها ، ثم إنها كانت تريد أن تشارك أبى فى اهتماماته بقدر المستطاع . فإن سألها أحد اليوم عن القضية الفلسطينية أو عن سوريا وحكوماتها أو عن الأردن والملك حسين أو عن تونس وتاريخها الحديث أو عن أى بلد عربى آخر سيجد أنها تعرف أدق التفاصيل عن ذلك البلد مما حصلته عن طريق حب المعرفة والقراءة الكثيرة والشعور بالانتماء للعالم العربى . ولست بهذا أود الثناء عليها بل أقول الحقيقة عن طبيعتها ومقدرتها على التكيّف وعلى فهم الآخرين بدون أى حاجز من الحواجز بينها وبينهم ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى زواجها من أبى فكان هو كذلك يقابل الناس على المستوى الإنسانى وكان لذلك محبوبا جدا حيثما ذهب .

وأحيانا كنت أسأل أمى إن كانت تشعر بأصلها السويسرى فكانت تجيب بأنها مادامت مع أبى فإنها تشعر بأنها مصرية وأن انتماءها كله لمصر ولكن عندما كانت تذهب إلى سويسرا لزيارة أهلها كانت تشعر بأنها سويسرية بمجرد أن تضع رجلها على أرض سويسرا أسفل سلم الطائرة وتصل إلى بيت أهلها وتشهد من جديد قيم النظافة والنظام واحترام الغير أيا كانت طبقته الاجتماعية واحترام القواعد السلوكية التى يتبناها الجميع أى الجيران بعضهم بالنسبة لبعض والمارون بالشوارع والمشترون بالمحلات ، وقائدو السيارات فاحترام القانون والقواعد السلوكية يمثل هناك قيمة فى حد ذاته . وقالت أمى أيضًا إن الشعور بانتمائها إلى سويسرا هذا يزول بمجرد أن تعود إلى جانب أبى .

وأذكر هنا بمناسبة اختلاف القيم ما بين مصر وسويسرا على سبيل المثال ففى سويسرا لا يوجد موزعو صحف بالمنازل فالصحف توضع فى الصباح الباكر فى صناديق معدنية مفتوحة من الجانب وبها ثقوب توضع النقود فيأخذ المواطن السويسرى الجريدة ويضع قيمتها فى الثقب المخصص لذلك . وهناك ثقة كاملة فى المواطنين إذ لا يعين موظف لحراسة صناديق الصحف هذه . وأذكر أننى سمعت فى إحدى المرات طالبا مصريا يدرس هناك بأنه يأخذ الصحيفة من الصندوق كل يوم ولا يدفع ثمنها ويرجعها بعد قراءتها فى نفس الصندوق وكان يحكى هذا ويتباهى بشطارته ولم يخطر بباله أبدا أنه بهذه الطريقة ينتهك القواعد فى سويسرا

وهو البلد الذى استضافه للدراسة به . وهناك الكثير من هذه الأمثلة والحكايات كنت أتعجب عندما أسمعها لأنها كانت كلها تسىء إلى سمعة مصر ، أما القائمون بهذه الانتهاكات فكانوا مسرورين ويضحكون وهم يحكونها ولا يدركون أن تصرفاتهم هذه من ضمن العقبات التى تحول بين بلدنا مصر وبين التقدم .

أذكر أننى درست فى جامعة الكويت وكانت دفعتى لا يزيد عدد طالباتها عن اثنتى عشرة طالبة وكنا - بطبيعة الحال - نحضر محاضراتنا بعيدًا عن زملائنا الذكور . وكنت أنا الوحيدة المصرية ، أما باقى زميلاتى فكانت بينهن طالبة سورية وأخرى فلسطينية والباقيات كن كويتيات . وأذكر أن المحاضرات كان يلقيها علينا عدد من كبار أساتذة اللغة الإنجليزية ، وكان بعضهم مصريين والآخرون من بلدان عربية أخرى . وبسبب عددنا الصغير كانت المحاضرات مكثفة ، وكان هناك وقت لكى نسأل الأستاذ ما نريده مما ندرسه وأن نتناقش فى المواضيع فى تعمق . وعددنا الصغير جعلنا نصبح صديقات ، وظلت هذه الصداقات مدة طويلة بعد تخرجى إذ كنا نتراسل سنوات طويلة ثم اختفت كل واحدة منا فى بلدها وحياتها . المهم أدت الصداقات التى كونتها فى جامعة الكويت إلى التزاور داخل البيوت . وأذكر كم كانت بعض بيوتهن جميلة بل كان بعضها بمثابة القصور ولم أر بداخلها إلا ما هو جميل وما هو ثرى . فكانت الشوك والسكاكين التى نأكل بها من نوع « الكريستوفل » المذهب والأطباق « ليموج » أو

« روزنتال » والسجاجيد إيرانية أو صينية والتحف صينية قديمة وأطقم المجالس فرنسية . وكنا نشرب القهوة المرّة بالحبهان فى « استكانات » ثم نفرش السفرة بالمأكولات الكويتية مثل « المنف » و « المقلوبة » والطيور البرية التى كان يصطادها رجالهم فى مواسم العيد . ثم كانت ملابسهن معظمها من بيوت الأزياء المعروفة مثل « جى لاروش » و « لانفين » و « ديور » وأسماء أخرى شهيرة : كان كل ما أراه داخل هذه البيوت جميلا وثريا وكان الكويتيون أنفسهم يقدرون ما لديهم فلم يجيئوا بمثل هذه الأشياء لإبهار زوارهم بل كانوا يأتون بها لأنه كانت لديهم ثروات عظيمة فكانوا ينفقون على بيوتهم وعلى أنفسهم وكانوا فى غاية الكرم فى استضافاتهم .

وأذكر أن جلساتنا كانت دائما نسائية وكنا ننسى خلالها إلى أى بلد عربى ينتمى كل منا وكنا نحكى ونتناقش فى أمورنا الشخصية والعامة وآمالنا وأحلامنا وعاداتنا واهتماماتنا ومخاوفنا . وكانت اجتماعاتنا هذه لا تتكرر كثيرًا ولكنها حينما كانت تحدث كانت متعة حقيقية وعلمت من خلالها جمال أخلاقهم وتكريمهم للضيف . والذى يضفى قيمة لهذه الصفات أنه لم تكن بيننا مصالح مادية ولا غيرها فكنا مجرد زميلات بالجامعة .

وعندما كنت أرجع إلى البيت وأحكى عما فعلت كان أبى دائما يثنى على الكويتيين بسبب إسهاماتهم الكثيرة فى الثقافة العربية فمن يستطيع إنكار أهمية مجلات ثقافية مثل مجلة العربى أو مجلة

عالم الفكر أو سلسلة عالم المعرفة وأشياء أخرى لا تخطر على بالى الآن . إنهم كشعب كسبوا الكثير ولكنهم لم يبخلوا على غيرهم أبدا ومازالوا حتى الآن لهم طابع خاص وحس متميز بالكرامة وعزة النفس وأعتقد شخصيا أن نسبة التقدم لديهم أكبر مما لدينا فى مصر إذ كان الدينار الكويتى أيام وجودنا هناك يساوى تقريبا جنيهين مصريين أما الآن فيساوى ما يتعدى العشرة جنيهات ولا يرجع ذلك إلى ثروة البترول التى لديهم فمصر بها ثروات أخرى كثيرة توازى ثروتهم وربما تفوقها ولكن السبب قد يرجع إلى أننا كشعب نسيء التصرف فى أمور كثيرة ونضيع وقتنا الثرى فى أمور غير أساسية ، وكان أبى رحمه الله يحزن كثيرا لذلك .

ولكن معاملة الكويتيين لنا لم تكن دائما جيدة فكنا أحيانا نعامل بطريقة غير ملائمة من صغار الموظفين الكويتيين . وأذكر – على سبيل المثال – أنه فى مرة من المرات عند عودتنا إلى الكويت بعد قضاء العطلة الصيفية فى مصر وجدنا حقيبة سفر من حقائبنا ناقصة . فقالوا لنا فى المطار إنه يجب علينا أن نسأل عنها بعد بضعة أيام فى مخازن المطار حيث يرسلون كل الحقائب التى تاه أصحابها عنها . فذهبنا وأتذكر المنظر الذى رأيته بوضوح وكنت فى صحبة أبى وأمى إذ دخلنا مكتبا كبيرا ووجدنا موظفا كويتيا جالسا على مقعد المكتب وهو يرتدى الدشداشة وهى الجلباب الأبيض المعروف لدى الكويتيين وعلى رأسه غترة بيضاء أيضا وكانت قدماه الاثنتان مرفوعتين على المكتب أمامه بدون حذاء .

وعندما دخلنا عليه لم يتحرك من وضعه وحياناً وهو فى نفس هذا الوضع وطلب منا الأوراق التى تثبت أن لدينا فعلا حقيبة لم نعثر عليها وقال لنا أن نذهب حيث المخازن وأن نبحث عنها نحن . قال كل ذلك وهو لم يتحرك ولم يرسل أحدًا معنا حتى يساعدنا على البحث . وبطبيعة الحال لم نجد الحقيبة إذ كان بهذا المخزن مئات الحقائب ومن البضائع الأخرى فتركنا المكان دون أن نعثر على ما كنا نبحث عنه وبدون أن ندخل ثانية فى هذا المكتب لأن ذلك الموظف لم يراع أبسط سلوكيات التمدن عند استقبالنا . وحدث أن أبى حكى هذا الموضوع لأحد أصدقائه الكويتيين فذهب هذا الصديق وتطوع بأن يأتى بالحقيبة الضائعة .

وكان أبى حقيقة سعيدا بوجوده فى الكويت فكان يعمل بالجامعة صباحا وفى البيت بعد الظهر . ومن الكتب التى ألفها خلال وجوده هناك كان كتاب عالم الإسلام (١٩٧٥) والحضارة (١٩٧٨) والمساجد (١٩٧٨) وترجمة كتاب تراث الإسلام فى جزءين (١٩٧٨) .

وكان قد عيّن رئيسا لقسم التاريخ الذى كان يعمل به وأذكر أن طريقته فى الرئاسة كانت أنه وزع جميع مسئوليات القسم على زملائه من الأساتذة وكان كل واحد منهم يعرض أمور مسئوليته فى مجالس القسم . وكان لا يتدخل إلا فى الأمور التى كان يعتبرها حاسمة .

أذكر أنه أثناء رئاسته للقسم حصلت إحدى الطالبات الكويتيات على درجة الدكتوراه وكانت تريد أن تدرس لطلبة السنة الرابعة بالقسم أى سنة التخرج . ورفض أبى هذا الطلب ، وقال إن كل من يدرس فى السنة الرابعة يجب أن يكون بدرجة أستاذ ولو كان هناك مدرس تخصص فى مادة تدريس بالسنة الرابعة فيجب أن تمر عليه على الأقل خمس سنوات خبرة بعد نيله درجة الدكتوراه حتى يسمح له بالتدريس فى السنة الرابعة . وأذكر أن زوج هذه الدكتورة الكويتية كان ذا نفوذ كبير فى الدولة وكذلك كان والدها ولكن أبى لم يتنازل عن قراره فكان يريد أن يبقى مستوى خريجى القسم على ما يجب من الارتفاع ، فهو لا يعرف المجاملة على حساب العمل .

أبى مع الدكتور عبد العزيز كامل فى الكويت فى السبعينات .